المدنية العربية في الغرب[1]

يقولون ان المدنية ولدت في الشرق وانها بعد ذلك اخذت طريق الشمس. ولعمري ان هذا القول لجميل ولكنهُ لا يتمشى مع الحقائق التاريخية. فان مهد الحضارة يجب ان يبحث عنهُ هنا بين هياكل قدماء المصريين ومعابدهم. اولئك القوم الذين نرى اهرامهم العظيمة تطاول السماء وهي شهود قائمة منذ آلاف السنين بالاعتقاد بخلود النفس. وهم باختراعهم الحفر الذي كانت منهُ اصول الحروف الهجائية قد وضعوا الاساس الابدي للعلم والعرفان والحضارة

حقيقة نبتت المدنية على ضفاف النيل وابنعت ثمارها ومنها امتدت الى شواطىء البحر الابيض المتوسط الشرقية ومن ثم الى الشواطىء الغربية وبتوالي الزمن وبتغير الشعوب يتداولها الخلف عن السلف تحسنت الى ان اخذت زخرفها واصبحت تزهو في ثوبها الانيق الذي نراها ترفل بهِ الآن

وبينما كان نجم المدنية الرومانية التي قامت على اطلال المدنيات القديمة قد اخذ في الافول وكانت اوربا قد عادت وسقطت في ظلمات الجهل كان العرب يشرفون برؤوسهم من سواحل البحر الابيض المتوسط ولم يلبثوا ان قامت منهم تلك البعثة الخطيرة التي ايقظت الامم الاوربية النائمة

وان ظهور العرب في الغرب لحادث جليل يستحق ان يذكر منا بالفكر والامتنان لان مدنية هذا الشعب العظيم كان لها تأثير واي تأثير في حياة الشعوب اللاتينية بل الاوربية

كان العالم اليوناني واخوهُ الروماني قد سقطا في كل مكان عند ما اخرج محمد العظيم خلفاءهُ من ابناء الصحراء ونشرهم في انحاء العالم لفتحهِ وغزوهِ فانتشروا في كل مكان وجروا فوق صهوات جيادهم شرقاً وغرباً حتى شيدوا ذلك الملك الكبير الزاهر الذي كان يمتد من بلاد الهند الى بلاد الاندلس ومن بحر الخزر حتى المحيط الاطلسي

---

(١) محاضرة القاها الدكتور الاستاذ لويجي رينالدي نزيل القاهرة في نادي خريجي المدارس الايطالية ونقلها من اللغة الايطالية الى العربية الاديب طه افندي فوزي

لم تكن المدنية التي اكتسبت من الفتح الاسلامي متساوية في جميع البلاد التي افتتحوها ولكن يمكننا القول بوجه عام انهُ في الاقاليم التي كان يسكنها الجنس السامي مثل بلاد العراق والشام ومصر وجميع بلاد افريقيا الشمالية كان نفوذهم ذا تأثير فعال ذلك بان نقلوا اليها دياناتهم وعاداتهم ولغتهم اما في البلاد الاخرى فبدلاً من ذلك كان نفوذهم يقل كثيراً او قليلاً وكان جزئياً حتى في نفس الشرق خصوصاً في بلاد الفرس التي كان يسكنها فرع من سلالة الجنس الاوربي فان نفوذ الاسلام فيها لم يكن عميقاً ذلك ان هذا الشعب تحت ثياب الديانة الجديدة لم يلبث ان اعلن استقلاله وجنسيته ووطنيته وسرعان ما اوجد انشقاقاً دينياً وسياسياً. كذلك لم يكن التأثير في لغة هذا الشعب قوياً جداً نعم ان ثلث كلمات اللغة الفارسية مأخوذ من اصل عربي الاَّ ان التأثير لم يتسلط على القواعد اللغوية ما عدا بعض مواضع قليلة نادرة

اما اوربا حيث وجد العرب واقاموا ردحا من الزمن فلم يكن لهم فيها اي تأثير ديني وكذلك كان نفوذهم على اللغة ضئيلاً

قلت في ايطاليا اعني صقلية اما في باقي بلادنا حيث وضع العرب اقدامهم ووقفوا قليلاً لم يبق اثر يذكر لاقامتهم ولا لاستعمارهم

هذا ويجب ان نلاحظ ان العرب في فتوحاتهم كانت معاملتهم لاهالي البلاد المفتتحة تختلف حسب نياتهم فاذا عقدوا العزيمة على فتح البلد والاقامة به كانوا يحتلونهُ احتلالاً كلياً وكانت سياستهم مع الشعوب المحكومة سياسة التقرب والتحبب اليهم لجلب رضائهم وذلك باحترام دياناتهم واعطائهم كامل الحرية في اقامة شعائرها وقوانينهم والظمتهم وتركهم لهم حريتهم الشخصية . ولم يكونوا ليفرضوا عليهم غير ضريبة شخصية خفيفة تسمى في اللغة الصقلية Testa ومعناها بالعربية الجزية الشخصية وكان يستثنى من دفعها النساء والاطفال والفقراء والمرضى ورجال الدين وهذا مثل لاعتدالهم ولذلك نجح الفاتحون العرب في اكتساب مودة المحكومين واحترامهم

واما اذا كان غرضهم مجرد الغزو بقصد الانتقام فكانوا يجدون المقاومة الشديدة والكراهة من الاهالي لانهم كانوا يعتبرون البلد الذي يتمكنون من فتحه غنيمة اغتنموها ويجب الاستفادة منها على قدر الامكان فكانوا يستولون

على كل ما تقع عليهِ ايديهم ويتلفون ما لم يمكنهم اخذهُ وقد وقع شيء من هذا في فرنسا وايطاليا

لم يحدث شيء من ذلك في صقلية بل كان الامر على عكس ذلك اذ كانوا يتبعون طريقة اخرى فانهم احتلوها باجمعها في منتصف القرن التاسع من الميلاد بينما كانت تتلألأ مدنيتهم في الشرق وفي الغرب فنقلوا اليها كل علومهم وصنائعهم وعوائدهم وآدابهم وقد اثبت ذلك المؤرخ الايطالي الشهير (آماري) في مؤلفهِ المسمى « المسلمون في صقلية » حيث قال « وكان يعيش الرعايا المقهورون في راحة وسرور تحت حكم امراء المسلمين وكانت حالتهم احسن بكثير من حالة اخوانهم الايطاليين الذين كانوا يرزحون تحت نير اللنجورمانيين والفرنجه »

استمر العرب يحكمون صقلية قرنين ونصفاً ثم استولى النورمانيون على مقاليد الحكم في البلاد من ايدي العرب المقهورين ولكن بقي من هؤلاء بالجزيرة كثيرون وكانوا لا يزالون يؤثرون في هذا الشعب حتى تحت حكم هؤلاء الامراء الجدد فكان منهم المعلمون والاساتذة والعمال المهرة وبفضلهم تقدمت العلوم وارتقت الصناعات ولما كان وجودهم ضرورياً لرقي البلاد فقد شملهم الملك رودريق بحمايتهِ الخاصة طول مدة حكم النورمانيين. هذا ولا تزال الى الآن موجودة براءات ملوك النورمان مكتوبة باللغات العربية واللاتينية واليونانية كذلك كانت اللغة العربية احدى اللغات التي تضرب بها نقودهم وعليها شارتا الاسلام والمسيحية (الهلال والصليب) ولم يقتصر الامر على ذلك فقط بل كان يوضع عليها ايضاً نص قاعدة العقيدة الاسلامية بالعربية فقط وهي

لا اله الاَّ الله محمد رسول الله

كذلك استمر الامراء الذين خلفوا النورمانيين في حكم البلاد على ضرب نقودهم باللغة العربية . وبهذه المناسبة يحسن ان نلاحظ ان كلمتي zecca ومعناها السك و zecchino محل سك النقود هما كلمتان عربيتان

ولقد كان ملكهم فردريك الثاني كثير الاهتمام باللغة العربية وآدابها حتى ضرب فيها بسهم وافر واذا اردنا ان نعرف الى اي حد وصل النفوذ العربي في في صقلية فيكفي ان نسمع ما يقولهُ عربي صميم هو الرحالة العالم الجغرافي محمد

بن جبير الذي زار الجزيرة سنة ١١٨٧ في ايام الملك غليوم الثاني واثبتهُ في رسالتهِ المسماة « رحلة في صقلية » قال فيها

« وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجايبب وكلهم او اكثرهم كاتم ايمانهُ متمسك بشريعة الاسلام . وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم في احوالهِ والمهم من اشغالهِ حتى ان الناظر في مطبخهِ رجل من المسلمين ولهُ جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤهُ وحجابهُ الفتيان ولهُ منهم جملة كبيرة هم اهل دولتهِ . وليس في ملوك النصارى اترف في الملك ولا ارفه منهُ وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينهِ ووضع اساليبهِ وتقسيم مراتب رجالهِ وتفخيم ابهة الملك واظهار زينتهِ بملوك المسلمين . . . » ومن عجيب شأنهِ المتحدث بهِ انهُ يقرأ ويكتب بالعربية وشعارهُ على ما اعلمنا بهِ احد المختصين بهِ (الحمد لله حق حمده) . واما فتيانهُ الذين هم عيون دولتهِ واهل عمالتهِ في ملكهِ فانهم مسلمون . وزى النصرانيات في هذه المدنية (بلرم) زى نساء المسلمين فصيحات الالسن ملتحفات منتقبات خرجن في هذا العيد المذكور (عيد الميلاد) وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الاخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن او كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر »

ولا يزال بين بعض اهل الجزيرة حتى الآن بعض عادات تشبه عادات المسلمين . وقد ترك المسلمون كذلك عدداً عظيماً من كلماتهم في اللغة الصقلية والايطالية ولا تزال كذلك عدة اماكن بصقلية تحمل اسماءها العربية مثل Caltanisetta قلعة النساء و Calatafimi قلعة فيمي Calotagirone قلعة الجن Caltabellotta قلعة البلوط وغير ذلك كثير . كذلك كلة Marza مرسى مثل Marsala مرسى علي و Marzameni مرسى المينا و Misilmeri منزل الامير و Mezzoiuso منزل يوسف و Regalmotu رحل الموت و Resuttana رحل السلطانه وكثير من اسماء الانهار مثل Alcantara القنطرة و Dittaino وادي الطين و Rasigelbi (الراس الشرقي بالجزيرة) ومعناهُ بالعربية رأس القلب و Rasicanzir رأس الخنزير و Rasicorno راس القرن . ولا يزال اسم احد الطرق الرئيسية

في بلرم عربياً وهو Cassaro اي القصر وقد يضيق المقام عن ذكر اسماء مئات الاماكن

ولقد انتقل كثير من الكلمات العقلية التي من اصل عربي الى اللغة الايطالية اخص بالذكر منها كلة استعملها كثير من الكتاب الصقليين ثم تداخلت في اللغة الايطالية الفصحى وهي لفظة Zagara (زهره) ومعناها بالعقلية زهر البرتقال. ولم تكن الكلمات فقط هي التي دخلت ايطاليا وانما تسربت ايضاً بعض جداول من الدم العربي مع الجالية العربية التي نقلها معهُ الى مدينة لوشيرا Lucera الملك فردريك الثاني

ولما كان العرب في صقلية مضطرين ازاء عدم التسامح الديني والتعصب الذي لم يتأخر لحظة واحدة عن الظهور بعد زوال ملكهم من صقلية الى اعتناق الديانة المسيحية فقد اختلطوا بطبقة الشعب وهذا ما وقع ايضاً لمسلمي لوشيرا فلقد سمح لهم شارل الثاني بالبقاء في ملكه على شرط ان يعتنقوا المسيحية. ولقد عرف اولادهم من بعدهم باسم Marrani اي المرّان وهي كلة عربية اخذناها عن الاسبانيين وكانوا يلقبون بها المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية بالاندلس بعد ان دالت دولتهم منها وكانت مدينة لوشيرا مدينة اسلامية محضة حتى ان كلة Lucerini (اي سكان لوشيرا) كانت تؤدي معنى Saraceni الشرقيين او المسلمين

هذا ولا ننسَ ان العرب تركوا بعض الآثار في ايطاليا خارج صقلية حيث وضعوا رحالهم ووقفوا فترة من الزمن فان كلة اياتشو حاضرة جزيرة قورسيقا وجاريليانو (اسم نهر) كلتان عربيتان

ولكن الجزء الاعظم من الكلمات العربية الباقية في لغتنا الايطالية التي تفوق الحصر وكانت موضوع بحثي الخاص دخلت في اللغة لا بطريق الاستعمار العربي ولكن بطريق المدنية التي كثيراً ما تؤلف وتؤاخي بين مظاهر الحياة المختلفة

وان وجود هذه الكلمات في اللغة الايطالية ليشهد بما كان للمدنية العربية من نفوذ عظيم في العالم المسيحي وبما كان من العلاقات التجارية بين بلادنا وبين المسلمين في الشرق وافريقيا الشمالية وصقلية تلك العلاقات التي تشهد بالفترة المجيدة في تاريخ جمهورياتنا البحرية التي كانت سفنها تمخر عباب البحر الابيض

المتوسط طولاً وعرضاً واوجدت على سواحله عدداً عظيماً من جاليتها المهمة

اجتاح العالم المسيحي حوالى سنة ١٠٠٠ ميلادية غزو اسلامي جديد كان كالسيل الجارف ولم يكن اي حاجز يقوى على صده ولكنهُ كان في هذه المرة مخالفاً لسابقهِ اذ لم يكن ضغطهُ على الاجساد بل على العقول « ذلك الغزو كان التهذيب العربي والمدنية العربية فان شعب الصحراء العظيم ظهر على وجه الارض بعد سقوط المدنيتين الرومانية واليونانية واندثار معالمهما وعقب ذلك النصر الدموي الكبير الذي احرزهُ بسلاحهِ ذلك النصر الجميل الذي كان نتيجة الدرس والتعليم الذي اوجدهُ ابراهالعرب وسهروا ليلهُ لابنائهم وبذلك قام العرب في ظلمات بربرية القرون الوسطى باعادة نور الحضارة والمدنية الذي كان قد انطفأ في جميع بلاد الغرب والشرق حتى القسطنطينية ولقد قال بريس دافن Prisse D' Avenne الذي وضع كتاباً في الفن العربي « انهُ بعد سقوط الدولة الرومانية لم يكن هناك شعب يستحق ان يعرف غير الشعب العربي وذلك اولاً لكثرة فطاحل الرجال الذين اخرجهم هذا الشعب العظيم وثانياً لما احدثتهُ فنون هذا الشعب وعلومهُ من التقدم العجيب في العالم مدة قرون عديدة »

وفي ايام سقوطنا لجأ العلم الى ظل الاديرة الهادىء حيث كان الرهبان الساكنين قد انزووا في مقصوراتهم واخذوا يمسحون رخامتهم القديمة ليكتبوا عليها اصول دياناتهم وكانت مدنية العرب في القرنين التاسع والعاشر في الاندلس وصقلية قد بلغت اوج الكمال فلما شعرنا بالحاجة الى دفع ذلك الجهل الذي كان يثقل كاهلنا تقدمنا الى العرب ومددنا اليهم ايدينا لانهم كانوا الاساتذة الوحيدين في العالم

تسرب العلم من اسبانيا وصقلية الى بلاد اوربا . ويحكى ان جلبرت الذي كان بابا في سنة ٩٩٩ ميلادية تحت اسم سلفستر الثاني تلقى دروسهُ كلها في مدارس العرب بالاندلس ولما رجع الى اوربا واراد نشر ما اخذهُ من العلوم بين مواطنيهِ ظهر لهم ما نشرهُ بينهم غريباً جداً حتى انهم اتهموهُ بانهُ باع روحهُ للجنّ

ولقد انشئت بعد ذلك كلية المترجمين في سنة ١١٣٠ بمدينة طليطلة تحت رعاية المطران رايموندو وقامت بترجمة اشهر المؤلفات العربية والكتب التي كان قد ترجمها العرب من اللاتينية . وفي ذلك الوقت كان العالم المسيحي في صراع مع العالم العربي فبينما كان رسل الصليبيين يذهبون بعددهم وعددهم لانتزاع الاماكن المقدسة

من ايدي العرب في الشرق كان هنا في الغرب ينتزع منهم ملك العلم والعرفان الذي اوجدهُ اليونانيون والذي كساهُ العرب لباساً جديداً لان العلوم اليونانية التي كانت قد انتقلت الى ادبرة المسيحيين بسوريا انتقلت منها الى بلاد الفرس ومن ثم الى بغداد حاضرة العالم الاسلامي . ولقد كان اليونانيون بذلك اساتذة العرب الاولين وهؤلاء كانوا يستولون على معارف الشعوب القديمة الذين كانوا يدخلون بلادهم . وليس ثمة اغرب من تلك الحركة العلمية التي ابتدأت في بلاد العرب سنة ٧٥٠ ميلادية وانتقلت الى بغداد التي كان يسميها العرب « دار العلوم » وانتشرت في الغرب في الاندلس وسقلية ثم في اوربا

حقيقة ازهرت الحضارة في ظل الهلال وذلك بفضل الرعاية العظيمة التي كان الخلفاء والامراء العرب يشملون بها العلوم والآداب حتى ان العلماء المسيحيين كانوا يستدعون الى قصورهم ويجدون منهم عطفاً واحتراماً عظيمين وكذلك في العهد المتوسط كان الامراء العباسيون في الشرق والامويون في الغرب يجددون عهود برقليس واغسطس

وكانت عادة العرب عند ما يحتلون اي مدينة ان يؤسسوا فيها مسجداً يقيمون فيهِ شعائر دينهم ومدرسة يعلمون فيها ابناءهم وما كان اعظم جامعاتهم في بغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة واشبيلية وطليطلة وكانت مدرسة القاهرة الجامعة المسماة بيت زويله من اعظم جامعات العالم ومكانها الآن مسجد المؤيد كذلك كان في الاندلس وحدها سبعون مكتبة فيها الوف من الاسفار النافعة وكان في مكتبة قرطبة وحدها زهاء الستمائة الف مجلد في ايام الخليفة الحكم الثاني الذي كان يرسل رجالهُ في جميع بلاد الشرق للبحث والتنقيب عن الكتب الحديثة والقديمة وكان يكافئهم ويجزل لهم العطاء كلما عثروا بكتاب نافع . وكان ينفق في هذا السبيل من المال الشيء الكثير وربما كان هذا الخليفة العظيم اكثر الملوك اشتغالاً بالعلم وعناية بهِ واجودهم في سبيلهِ اذ كان كثير الاهتمام بنشر العلوم في بلادهِ فاسس في قرطبة وحدها سبعاً وعشرين مدرسة كان يتعلم فيها اولاد الفقراء مجاناً حتى لقد كان كل احد في الاندلس كما روى دوزي (Dozy) يعرف القراءة والكتابة بينما كان في اوربا جميع المسيحيين حتى نبلاؤهم واشرافهم غير التابعين للاكليروس لا يفكرون في التعلم

متأتي البقية